الآراء الكلاميَّة عند ابن طاووس
في كتابه كشف المحجَّة لثمرة المهجة

م.د. مهند محمَّد صالح
جامعة الكوفة/كليَّة التربية الأساسيَّة

The Theological Opinions of Ibn Tawus in his book Kashf Al-Mahajah Lethamrat Al-Mahja

Dr. Muhannad Muhammed Salih
University of Kufa/College of Basic Education

ملخَّص البحث

برزت في الأمَّة الإسلاميَّة شخصيَّات وأعلام زيَّنت تاريخها بأبهى حُلَّة؛ لما قدَّموه لها من عطاءٍ علميّ فريد، ترك أثرًا واضحًا من التَّجسيد الصريح للرسالة النبويَّة والمنهج العلويّ ، إذ نجد جملة من النصائح والإرشادات والتوضيح للطريق القويم، بل منهجًا لسلوكِ الصِّراط المستقيم.

لكن ما يؤسف له أنَّ أحدًا لم يولي هؤلاء الأفراد اهتمامًا بحجم ما قدَّموه للإنسانيَّة بشكلٍ عامٍّ، وللإسلام بشكلٍ خاصٍّ، ولمذهب أهل البيت بشكلٍ أخصّ.

من هذا المنطلق، أصبح لزامًا علينا من باب الوفاء لهم، أن نسلِّط، ولو القليل من الضوء، على إحدى هذه الشخصيَّات الناصعة في سماء الولاية، في بحثٍ أكاديميٍّ يتَّسم بالموضوعيَّة والدقَّة، بحسب رؤية الباحث.

وكان خيارنا على هذه الشخصيَّة العلميَّة هو من أجل إبراز أهمِّ آرائها في الجانب العقائديّ، والمنهج التربويّ، من خلال اهتمامهم بالتغذية الروحيَّة لأبنائهم ، ومن هنا جاء البحث عن هذه الشخصية العُلَمائيَّة مُبرزا تحت عنوان (الآراء الكلاميَّة عند ابن طاووس في كتابه كشف المحجَّة لثمرة المهجة)، وحاولنا من خلاله إبراز المؤلِّف والمؤلَّف؛ لنُثير بذلك بداية لإدخال علمائنا محلَّ البحث في المنهج الأكاديميّ، إذ إنَّ ما قدَّموه أكثر أهميَّة من الكثير ممَّن يُبحَث عنهم، ويُكتَب حولهم.

وكان منهج بحثنا مقتصرًا على المنهج الكلاميّ وآليَّة البحث فيه، لذا كانت فقراته

توائـم أصول الدين في مذهبنا الإمامـيّ، تبدأ من التوحيد، وتنتهـي بالمعاد والغيبيَّات. وقدَّمنا البحث بشكلٍ موجزٍ كثيرًا؛ لغرض الإحاطة بأوسع ما يمكن من الموضوعات، فبدأنا بتمهيدٍ تعريفيٍّ بسيط عن سيِّدنا العالم ابن طاووس، وكتابه ثمرة المحجَّة؛ لغرض إرشـاد القـارئ إلى أهمِّ المصـادر التي يمكنـه مراجعتها للاطِّلاع أكثـر، وليكون بحثنا مخصَّصًـا للآراء، وليس وصفًا لكتـابٍ أو لمؤلِّف، ونبعد عن الموضوع الأسـاس الذي حـاول البحث تسـليط الفكر عليه، ثمَّ أوردنا خمسـة مطالب عن أبرز مـا ذُكِر من آراء كلاميَّـة، وابتدأنا البحث في مشروعيَّة علم الكلام كمطلبٍ أوَّل، وعرَّجنا على مسـائل التوحيـد في المطلب الثـاني، بينما تمحور المطلـب الثالث حول النبـوّة ، فيما كان المطلب الرابع حول الامامة، وأخيرًا ختمنا المطالب بالمعاد.

Abstract

Personalities and scholars have emerged in the Islamic nation who have decorated their history in the most splendid manner because of their unique scientific gift that left a clear impact of the explicit embodiment of the Prophetic message and the Shiite approach, where we find a number of advice, instructions and clarification of the right path, but rather an approach to the behavior of the straight path But it is unfortunate that no one paid these individuals attention to the extent of what they offered to humanity in general, and to Islam in particular, and to the doctrine of Ahl al-Bayt in particular.

From this point of view, we found it necessary for us, out of loyalty to them, to shed even a little light on one of these bright personalities in the sky of the state in an academic research characterized by objectivity and accuracy, according to the researcher's vision.. And our choice was on this scientific personality in order to highlight its most important opinions in the ideological aspect and the educational curriculum, through

their interest in the spiritual nourishment of their children, and from here the search for this scientific personality came under the title ((The Verbal Opinions of Ibn Tawus in his book Kashf Al-Mahajah lethamrat Al-Mahja)). And we tried through it to highlight the author and the author, to provoke a beginning to include our scholars in the subject of research in the academic curriculum, as what they presented is more important than many of those who search for them and write about them.

The method of our research was limited to the theological method and the mechanism of research in it, so its paragraphs were in harmony with the principles of religion in our Imami school, starting with monotheism and ending with the return and the unseen. We presented the research in a very brief way for the purpose of understanding as wide as possible of the topics, so we started with a simple introductory introduction about the scholar Ibn Tawus and his book (Thamrat Al-Mahja) for the purpose of guiding the reader to the most important sources that he can review for more information. And let our research be devoted to opinions and not a description of a book or an author and we move away from the main topic that the research tried to shed thought on. Then we presented five demands on the most

prominent theological opinions mentioned, and we began to research the legitimacy of theology as a first demand, and we came to the issues of monotheism in the second requirement, while the third demand centered on prophecy, while the fourth demand was about the Imamate, and finally we concluded the demands of resurrection.

تمهيد

نظرة تعريفيَّة موجزة عن السيِّد العالم الفاضل ابن طاووس وكتابه كشف المحجَّة لثمرة المُهجة

ابن طاووس: هو السيِّد رضي الدين أبي القاسم عليّ بن موسى بن جعفر بن محمَّد ابن طاووس الحسنيّ الحسينيّ، ولِد في ٥٨٩هـ في الحِلَّة، من أسرة علميَّة، وتوفِّي فيها عام ٦٦٤هـ. له العديد من المصنَّفات، منها كتابه مدار بحثنا هذا، ونحن هنا إذ نوجِز؛ لتجنُّب الإطالة، فمن رغب في الاستزادة، يمكنه مراجعة مقدِّمات كتبه المؤلَّفة والمحقَّقة[1].

كشف المحجَّة لثمرة المهجة: ذكر المحقِّقون[2] لكتابه هذا وصفًا دقيقًا؛ لما حواه بين طيَّاته، يمكننا إيجازها بالقول بكونه كتابًا أخلاقيًّا عرفانيًّا، اشتمل على جملة من الوصايا كتبها السيِّد لذريَّته، وتشتمل على جملة واسعة من الموضوعات العقائديَّة والأخلاقيَّة التي ينبغي على الناس الأخذ بها والعمل بحدودها، لكون الأخلاق مسائل عمليَّة لا نظريَّة، فهي سلوك عملي، وليس فكر يشرح. ونحن بدورنا أبرزنا أهمَّ النقاط العقائديَّة وفق منهج علم الكلام.

(١) لمزيد من المعلومات حول شخصيَّة السيِّد المفضال، يمكن مراجعة مقدِّمة: تسهيل السبيل بالحجَّة، للفيض الكاشانيّ. كذلك: مقدِّمة التحقيق في كتاب محاسبة النفس للسيِّد ابن طاووس، بقلم جواد القيُّومي الاصفهانيّ، وكذا مقدِّمة كتابنا اعلاه.

(٢) ينظر: كشف المحجة ، المقدمة بقلم المحقق محمَّد الحسون. وكذا يمكن مراجعة مقدِّمة: تسهيل السبيل بالحجَّة، للفيض الكاشانيّ.

وتجدر الإشـارة من خلال ملاحظتنا للكتاب أنَّ القارئ والمطَّلع على سيرة علمائنا، يتجـلَّى له بكلِّ وضـوح اهتمامهم بالمنهج التربـويّ القائم على غـرس القيم الأخلاقيَّة، والمثـل العليـا في نفوس أبنائهم ، ومـا حواه هذا الكتـاب بين دفَّتيه لهـوَ خير مثال على ما نقول.

المطلب الأوّل

مشروعيَّة البحث في علم الكلام

اختلف علماء الإسلام حول مشروعيَّة البحث في مسائل علم الكلام، بين مؤيِّدٍ للبحث في مسائله، وهم أغلبيَّة علماء المسلمين، ورافضٍ للخوض في مسائله، وفي مقدِّمتهم بعض فقهاء المذاهب الإسلاميَّة، ولكلٍّ واحدٍ أدلَّته المثبِتة لرأيه، والمبطِلة لآراء الآخرين[1].

وعند التأمُّل في آراء السيِّد ابن طاووس، نجد أنَّه أشار إلى كِلَا الرأيَين الرافض والمؤيِّد للبحث في هذه المسائل، في هذا الكتاب الذي بين أيدينا، إذ أشار في معرض إثبات عدم مشروعيَّة البحث في علم الكلام إلى الروايات الواردة عن الإمام الصادق، ومنها: «**متكلِّمو هذه العصابة من شرارهم**»، وغيرها من الروايات[2]. ونستخلص من هذه الروايات رفض البحث والخوض في المسائل الكلاميَّة، وفي جانب آخر نجد رأيه الصريح بشأن مشروعيَّة البحث وجوازه، ولكن بشرط، إذ قال في الفصل التاسع

(١) افتى فقهاء المذاهب الأربعة في مؤلَّفاتهم بحرمة الخوض في المسائل الكلاميَّة تارةً، وذمِّ الخوض تارةً أخرى، وبعضٌ اشترط أن يكون الباحث فيه متخصِّصا حاذقًا. وللمزيد من التفصيل يمكن مراجعة المصادر الآتية: الحجَّة في بيان المحجَّة لقوام السنَّة أبو محمَّد، إسماعيل بن محمَّد التميميّ الأصفهانيّ (٤٥٧-٥٣٥هـ): ١/ ١١٦، ذمُّ الكلام، للهروي: ج٤ و٥، جامع بيان العلم وفضله، لابن عبد البرِّ: ج٢، إحياء علوم الدين، أبو حامد الغزاليّ: ج١، إلجام العوام عن علم الكلام، أبو حامد الغزالي.

(٢) ينظر: كشف المحجَّة لثمرة المهجة: ٦٤.

والعشرين من الكتاب: «أقول: ويحتمل المراد بهذا الحديث يا ولدي المتكلِّمين الذين يطلبون بكلامهم وعلمهم ما لا يرضاه الله ﷻ»[1]. ويُفهَم من هذا إنْ طلبَ الباحث رضا الله من هذا العلم؛ جاز له البحث والاشتغال به.

وثمَّة سبب آخر يمنع من البحث، أشار له السيِّد بقوله: «أو يكونون ممَّن يُشغلهم الاشتغال بعلم الكلام عمَّا هو واجب عليهم من فرائض الله ﷻ»[2]، فالإخلال بالواجبات ممنوع، ولا يجوز بحجَّة البحث في مسائل أخرى، وهنا قد يُفهَم أنَّ المسائل الكلاميَّة بهذا المعنى ليست من الأسس الواجب البحث فيها، بل ربَّما هي من التَّرف الفكريّ، ولأجل رفع مثل هذا اللبس، أوضح السيِّد أنَّها ليس ترفًا فكريًّا أو بحوثًا جانبيَّة، بل إنَّ الإخلال سببه هو عدم تحصين النفس بالعلم اليقينيّ؛ فتتولَّد الشبهات، «ولقد رأيت في عمري ممَّن ينتسب إلى علم الكلام، وقد اعقبهم ذلك العلم شكوكًا في مهمَّات الإسلام»[3]، ومن تتغلغل في قلبه الشكوك ليس من علماء الكلام، بل هو ممَّن ينتسب لهم، إذ لم يكن ممَّن حصل هذا العلم من منابعه الرئيسة.

وممَّا تقدَّم نتحصَّل على أنَّ السيِّد ابن طاووس يؤيِّد البحث الكلاميّ، والخوض في هذا العلم بعد تحصيل المقدِّمات الضروريَّة له، فلا ينبغي للعامَّة الخوض فيه، بل يجب ان يقتصر الامر على اصحاب التخصص الحاذقين.

(١) كشف المحجَّة لثمرة المهجة: ٦٤.
(٢) م.ن.
(٣) ينظر: م.ن: ٦٤.

المطلب الثاني

مسائل التوحيد

وجوب معرفة الله

من أساسيَّات المعرفة الإنسانيَّة الإلهيَّة بشكلٍ عام، طريقَي الفطرة[1]، والعقل، إذ «توجد خمس طرق عقليَّة رئيسة، وطريق فطريّ واحد؛ لإثبات ذات الله المقدَّسة»[2]، ويذهب علماء الإماميَّة إلى وجوب النظر والمعرفة، وعلى وجه الخصوص في المسائل الاعتقاديَّة، والمقصود هنا أنَّ النظر والبحث في العقائد واجب عقلًا، وليس الوجوب الشرعيّ أو العرفيّ[3].

بعد أن بيَّن السيِّد ابن طاووس أنَّ طرق معرفة الله غير محدودة ولا منحصرة، حيث قال: «ونعرِّفه أنَّ طرق المعرفة بالله جلَّ جلاله بحسب معلوماته ومقدوراته على الأنام، ولا ينحصر عددها بالإفهام»[4]، أخذ يُشير إلى بيان كِلاَ الطَّريقَين للمعرفة: طريق الفطرة، وطريق العقل والاستدلال، إذ إنَّهما سبيلَان لمعرفة الله.

(١) الفطرة هي ما يقتضيه الشيء لو خلي ونفسه وبدون مانع. للمزيد ينظر: تصحيح اعتقادات الإماميَّة، الشيخ المفيد، تحقيق حسين درگاهي: ٦١.
(٢) نفحات القران، مكارم الشيرازيّ: ٣/ ١١.
(٣) ينظر: عقائد الإماميَّة، محمَّد رضا المظفَّر: ٦٥، العقائد الإسلاميَّة، مركز المصطفى: ١٧٥.
(٤) كشف المحجَّة: ٥٥.

فطريق الفطرة له مجال من المعرفة، «ولأجل شهادات العقول الصريحة، والإفهام الصحيحة بالتصديق بالصانع، أطبقوا جميعًا على فاطر وخالق»[١]، بمعنى أنَّ الإنسان لو خلي ونفسه؛ لحكم بوجود الخالق، وهذا طريق الفطرة. وقد أكَّد ذلك بقوله: «ويعلم من ولِد على الفطرة ولا يعرفه المنَّة عليه في تلك الهداية التي منَّ الله عليها»[٢]، وقوله: «فهل ترى يا ولدي المعرفة إلَّا من الله وبالله، وأنَّه ﷻ هو الذي هدى للإيمان»[٣]، وقد أكَّد ذلك بقوله: «فلولا أنَّ العقول قاضية بالاكتفاء والغناء بإيمان الفطرة، ودون ما ذكروه من طول الفكرة...»[٤].

أمَّا دور الدليل العقليّ برأيه، ليس في حقيقته إلَّا تنبيه على المعرفة، وليس طريقًا أوحدًا عليها، وهذا ما تقرَّر بقوله: «فيما أذكره من التنبيه على معرفة الله ﷻ، والتشريف بذلك التعريف»[٥]. وجعل الأدلَّة السمعيَّة أو ما يعبَّر عنها بالدليل النقليّ، تنبيهات على إثبات العقيدة، «وقد تضمَّن كما ذكرت لك كتاب الله ﷻ، و... من التنبيه على دلائل معرفة الله»[٦]. فالفطرة قد تتلوَّث وتحتاج إلى التنبيه؛ لازالة هذه الملوِّثات، فكلُّ من ضعفت فطرته عليه «أن يقوِّي ما عندهم من الفطرة الأوَّليَّة بالتنبيهات العقليَّة والقرآنيَّة»[٧].

قد يُفهَم من الكلام السابق أنَّ السيِّد يرفض المعرفة من طريق النظر والتفكُّر أو أنَّه يمنع النظر والتفكُّر، ويكتفي بالفطرة، لكنَّ الحقيقة غير هذا، إذ إنَّ السيِّد يؤكِّد

(١) كشف المحجَّة: ٤٩.
(٢) م.ن: ٥٢
(٣) م.ن: ٥٣.
(٤) م.ن.
(٥) م.ن: ٤٨.
(٦) م.ن: ٥٠.
(٧) م.ن: ٦٨

عدم معارضته، بقوله: «فما أردت ولا أريد به إسقاط وجوب نظر العبد فيما يجب عليه النظر فيه من التكاليف، وقد قدَّمت الإشارة إلى هذا المعنى فيما مضى من التعريف، وإنَّما أكرِّره؛ ليفهم كلُّ قويٍّ يفهمه أو ضعيف، أنَّني ما منعت من النظر، بل النظر واجب على المكلَّف في كلِّ ما يجب عليه فيه نظره، ممَّا لا يدركه إلَّا بالنظر والتكشيف»[1].

وعمدة الكلام في هذه المسألة نتحصَّل عليه من خلال كتابه هذا، أنَّ المعرفة بالعقيدة واجبة على كلِّ مسلم، سواء حصل عليها بالدليل أو بالفطرة، فلا ينبغي ترك البحث فيها[2].

إثبات وجود الله تعالى وصفاته

بعد بيان طريق المعرفة، شرع المصنِّف في بيان الأدلَّة والشواهد على هذه المعرفة التي من أوَّلها وأساسها إثبات وجود الخالق. ومن هذا المنطلق، وتأكيدًا لما سبق في البحث، نجد أنَّ السيِّد ابتدأ بالطريق الفطريّ للمعرفة، أو ما يمكن أن نسمِّيه بالدليل الفطريّ، وهو دليل الأثر على مؤثِّره، وفيه دلالة مجملة على الخالق. يقول السيِّد: «فهذا يدلُّك على أنَّ فطرة ابن آدم ملهَمة معلَّمة من الله جلَّ جلاله بأنَّ الأثر دلَّك دلالة بديهيَّة على مؤثِّره بغير ارتياب، والحادث دلَّك على محدِّثه بدون حكم أُولي الألباب»، ويقول في موضع آخر: «فصار النظر الأوَّل دالًّا، قبل الترتيب على واهبه دلالة مجملة حجَّة لله جلَّ جلاله عليه، مع ما كنَّا قد نبَّهنا عليه من كَون الإنسان قد مضى له قبل البلوغ عدَّة سنين يعرف أنَّ الأثر دالٌّ على المؤثِّر دلالةً خُلِق عليها، وهدايةً هداه صاحبها إليها»[3].

(١) كشف المحجَّة: ٧٠.

(٢) يمكن إدراك هذا المعنى بشكلٍ واضحٍ من خلال مطالعة الفصول من الفصل الرابع عشر إلى الفصل السابع والعشرون، من: ٨٤- ص٦٣ من كتابه هذا.

(٣) كشف المحجَّة: ٥٢، و٥٩.

إنَّ دليل الأثر لا يُراد منه إثبات وجود الخالق فقط، بل يُثبت من خلاله كذلك صفات هذا الخالق، «ويقتضي ظهور هذه الآثار المحكمة الباهرة، والدولة المنتظمة القاهرة، أنَّ فاعلها حيٌّ عالم قادر مختار حكيم، وأن وجوده وصفاته بذاته؛ لأنَّه لو كان ﷻ أو شيء من صفاته بغيره، اقتضى ذلك عكس شهادة الألباب بقِدَمِه وأزليَّته وتمام قدرته»[1].

ولكنَّ هذه الصِّفات، وهي مشتركة مع صفات الإنسان ومن سنخها، إلَّا أنَّها غيرها، أو قل مغايرة لها فـ«إنَّ وجوده ﷻ وصفاته ليست مناسبة لوجودنا وصفاتنا في شيء من الأشياء؛ لأنَّنا موجودون به ﷻ»[2]، وهذه الصفات هي ذاته غير مغايرة لها، ولا يمكن للعقول إدراكها، وقد أشار إليها بقوله: «أنطق العقول بشهاداته، وأنَّه لو كان وجود ذاته أو شيء من صفاته بغير ذاته، كان ذلك طعنًا في دلالتها على كماله، ومقتضيًا لزواله، فلمَّا دلَّنا بذلك وأمثاله على أنَّ وجوده بذاته اقتضى ذلك أنَّه لا أوَّل له ولا آخر له، واقتضى علمه بذاته أن لا يبقى معلوم إلَّا أحاط بكليَّاته وجزئيَّاته، واقتضى كونه قادرًا لذاته أن لا يبقى مقدور إلَّا قدر عليه، واقتضى غناه بذاته أنَّه يستحيل الفقر عليه؛ لأنَّ تقدير فقره في شيء يحتاج إليه يضاد فطرة العقول فيما حكمت به وهجمت عليه في كماله؛ لأنَّ الفقير مضطر إلى ناظر في فقره، وجابر لكسره، وإلى مؤثِّر آخر قام بأمره، وكذلك كونه حكيمًا؛ لأنَّ ترتيب الدنيا وما فيها من العجائب الظاهرة، وتعلُّق بعضها ببعض في فوائدها الباطنة والظاهرة، دالَّة دلالة باهرة قاهرة على أنَّ فاطرها ذو حكمة باهرة، وكذلك ما نطق به القرآن الشريف من أنَّه مريد وكاره وسميع وبصير، وأنَّه يغضب ويرضى ويسخط، وكلُّ صفة ورد بها كتاب الله من كتبه الشريفة، أو صحَّ

(١) كشف المحجَّة: ٧٠.

(٢) م.ن.

نقلها عن الأنبياء والأوصياء والأولياء العارفين بصفاته المقدَّسة المنيفة، فإنَّها لا تشبه صفاتنا ولا صفات المحدثات، ولو كانت مدركة أو متخيرة أو مشبَّهة للمتخيرات في حقيقة أو صفة أو جهة من الجهات، افتقرت إلى قادر منزَّه عن تلك النقيصات، بل ذاته ﷻ وصفاته غير مدركة بالعقول والتوهُّمات»[1].

فالعلم والقدرة والحياة والسمع والبصر والحكمة وكلُّ ما أثبته القرآن والنبيّ ﷺ، وكذلك الصفات التي يجب تنزيهه عنها، كالفقر والفناء هي صفات خارجة عن نطاق فهم وإدراك البشر، ولا يتسنَّى له إدراكها أو الإحاطة بها، «وكيف يدرك من حقيقته ﷻ ليس لها كيفيَّة فتدرَك، ولا طريق للعقول إليها فتُسلَك، وقد عجز كثير من العقلاء عن فهم حقيقة العقل والروح والنفس، وهي أثر من آثاره، فمن عجز عن الأثر المصاحب له، المختص به في ليله ونهاره، كيف يطمع في إدراك ما لم يحصل له المؤثِّر ﷻ طريقًا إليه من أسراره، وقد عجزت العقول عن صفة اقتداره»[2].

وسلك السيِّد مسلك الإثبات لبعض الصفات من طريق العقل، فكون الإنسان قادر مختار، كذلك خالقه قادر مختار، ونفى أن يكون صدور الإنسان عن علَّة موجِبة للخالق، وإلَّا لكان الأنسان غير مختار «من يقول إنَّه يمكن أن يكون الموجودات صدرت عن علَّة موجِبة، فاعلم أنَّه هذيان اقتضاه جهل الإنسان، وأنا أقرِّب عليك تعريف أنَّه مختار بما لا يشتبه عليك، ولا على غيرك من ذوي الاعتبار، وهو أنَّك تعلم أنَّك مختار، وأنت أثر من آثاره، ولو كان علَّة موجِبة، ما كان يصدر عنها إلَّا علَّة مثلها غير مختارة»[3].

(١) كشف المحجَّة: ٧٠-٧٢.
(٢) م.ن: ٧١-٧٢.
(٣) م.ن: ٧٢.

وفي هذا الاستدلال إشارة واضحة إلى أنَّ فاقد الشيء لا يعطيه، أو كما يعبَّر عنها معطي الكمال لا يكون فاقدًا له[1]، وبذلك تثبت جميع الصفات الكماليَّة، إذ إنَّها موجودة في المخلوقات، وإن كانت مغايرة لها.

اللطف الإلهيّ

من المباحث المهمَّة في توضيح بعض المسائل الاعتقاديَّة، مبحث اللطف الإلهيّ وأثره في بعثة الأنبياء، وهو من المباحث العقليَّة، إذ يبحث عادةً مع صفة العدل الإلهيّ.

فاللطف: «اللطف هو ما يكون المكلَّف معه أقرب إلى فعل الطاعة، وأبعد من فعل المعصية، ولم يكن له حظٌّ في التمكين، ولم يبلغ حدَّ الإلجاء»، كما عرَّفه علماء الإماميَّة مع فارق بسيط، ولكن من حيث المفهوم العام واحد؛ «لأنَّ الإلجاء ينافي التكليف، واللطف لا ينافيه، وهذا اللطف المقرب. وقد يكون اللطف محصَّلًا، وهو ما يحصل عنده الطاعة من المكلَّف على سبيل الاختيار»[2].

يذهب السيِّد إلى القول بأنَّ الله تبارك وتعالى قد لطف بعباده عبر تهيأة الظروف المناسبة والملائمة لهم، واستدلَّ بجملة من الأدلَّة والشواهد التاريخيَّة على ذلك، كقضيَّة أصحاب الكهف، وامرأة فرعون، وأم موسى، والسحرة عند فرعون، ومريم، والذين جميعهم كانوا مستضعَفين، لكنَّ الله مَنَّ عليهم وأنجاهم من الأخطار[3].

(١) ينظر: بداية المعرفة، حسن مكِّي العامليّ: ١١٠، الميرزا الأصفهانّي رائد التفكيك في المعرفة الدينيَّة، مجموعة مؤلِّفين، ترجمة: عبَّاس جواد: ٣٨٢، مفاهيم القرآن: ٦/ ٣٨٣.

(٢) ينظر: كشف المراد في شرح تجريد الاعتقاد، العلَّامة الحِلِّيّ: ٤٤٤، الذخيرة، الشريف المرتضى، باب الكلام في اللطف: ١٨٦، وغيرها كثير.

(٣) ينظر: كشف المحجَّة: ٧٣-٧٤.

وذكر جملة من مصاديق هذا اللطف الإلهيّ، ومنها[1]:

١. رعاية الإنسان رعاية كاملة بالطعام والشراب، صغيرًا وكبيرًا.

٢. تهيأة أسباب العيش الرغيد، وسهولة الوصول إليه.

٣. تليين قلوب المقرَّبين إليك.

وغيرها من موارد اللطف التي ذكرها.

(١) ينظر: كشف المحجَّة: ١٤٨-١٥٧.

المطلب الثالث

النبوَّة

مـن الأصول الدينيَّة التي أجمعت عليها الأديان والشرائع الإلهيَّة، هو وجوب بعثة الأنبياء والرُّسل لهداية الناس(١).

يُشـير السـيِّد إلى وجوب الإيمان بالنبـوَّة، ونبوَّة نبيِّنا على وجهٍ خـاصٍّ، فقال: «إنَّ معرفة جدِّك محمَّد سـيِّد المرسـلين، وتصديقه بما جاء به من ربِّ العالمين، ما تحتاج الآن فيهـا من الدلالة إلى مـا كان يحتاج الناس إليه أوَّلًا عند أوَّل الرسـالة»(٢)؛ وذلك لحاجة الإنسـان إلى وجود النبيّ والرسـول؛ لأنَّ «العقول ما تقوم بذاتها بكشـف مراد الله ﷻ منهـا على التفصيل، وأنَّها لا بدَّ لها من واسـطة بين الله ﷻ وبينهـا، يدلُّها إلى مراده ﷻ في كلِّ مـا يحتـاج إلى معرفتـه به من كثيرٍ أو قليـل»(٣)، والدليل على ذلـك «أفلا ترى أنَّ العقـول كانت مع أصحابها قبل إرسـال الله ﷻ جدَّك محمَّدًا صلـوات الله عليه إليهم، كانوا عاكفين على عبادة الأصنام والأحجار والأخشاب، يضحك الشيطان بها عليهم، وبلغوا إلى أخسِّ وأدبر من الدواب؛ لأنَّ الدابَّة لو تُرِكت بغير سـائق ولا قائد ما مشـت إلَّا إلى ما يعتقد فيه نفعًا بسبب من الأسباب، والذين عبدوا الأصنام ما كانت نافعة لهم،

(١) ينظر: الاعتقادات، الشـيخ الصدوق: ٩٢، عقائد الامامية، الشيخ محمَّد رضا المظفَّر، العقائد الإسلاميَّة، محمَّد حسين الطباطبائيّ: ١٤٥-١٥٥.

(٢) كشف المحجَّة: ٧٩.

(٣) م.ن: ٨٠

ولا دافعة عنهم، وهي مساوية لسائر الأحجار والأخشاب، حتَّى تفضَّل الله ﷻ عليهم بجدِّك محمَّد صلوات الله وسلامه عليه وآله؛ فأيقظ العقول من رقدتها، وكشف عنها غطاء جهالتها، فأبصرت ما كان مستورًا عنها، ووجدت ما كان عمياء عنه، فهو أقرب قريب منها، فعلَّمهم آداب الدنيا والآخرة، وفتح لهم كنوز العلوم الباهرة، فصنَّفوا الكتب في عجائب الألباب التي كانت دارسة، وأوضحوا عن طرق الآداب التي كانت طامسة، وكفى بذلك دلالات ضروريَّات على وجوب رسالته وصحَّتها، وثبوت ما اشتملت عليه من الآيات»[1].

ويُشير السيِّد إلى عدم وجود حاجة إلى دليل على نبوَّته لمن عاصره وعاشره؛ لما ثبت عنه من صدقٍ وحسن السيرة والأمانة، وغيرها من سائر سلوكيَّاته، فضلًا عن المعجزات والكرامات، فقال: «وكيف يحتاج يا ولدي محمَّد الآن من يخالط أهل الإفهام، ومن نشأ في بلاد الإسلام، إلى طلب دلالة على نبوَّة جدِّك محمَّد العظيم الشأن، أو إطالة النظر في التحدِّي بالقرآن، وقد وجد المسلمون صدقه صلوات الله عليه وآله فيما أخبر به من الغائبات، ومن الآيات الباهرات»[2].

(١) كشف المحجَّة:٨١.
(٢) م.ن: ٨٠-٨١.

المطلب الرابع

الإمامة

مـن مميِّزات الإماميَّـة هو القول بوجوب الإمامة بالنـصِّ، ويُقصَد منه أن لا يصحُّ عقـد الإمامـة اتِّفاقًا، بل لا بدَّ من أن يُعيَّن الإمام، بـما يمتلك من صلاحيَّات، من جهة عُليـا تُحقِّق الغرض من وجوده، وليس ثمَّة جهة تمتلك مثل هذه الصلاحيَّات غير تلك الجهـة التي بعثت الأنبياء وأرسـلت الرُّسـل، فلا بدَّ من النصِّ على الإمـام، إن لم يكُن مبـاشرًا، فيكون بواسـطة النبـيّ الذي لا ينطق عن الهـوى، فالإماميّ يعتمد في إثبات الإمامة بالنصِّ على العقل[1].

يذهـب السـيِّد إلى ضرورة وجود الإمام لغرض التأويل وبيـان الدين «إنَّ العقول قاضيـة أنَّ كمال رحمة الله ﷻ بعباده يقتـضي أن يكون لهم في كلِّ زمانٍ وأوانٍ من يدلُّـهم عـلى مـراده، دلالة تُغني عـن التأويـل، وعن الاختـلاف، وتصون عـن التضليل»[2]، ويذهـب كذلـك إلى بيان وظيفـة الإمام التي هـي حفظ الديـن، فيقـول: «أراد جدُّك محمَّـد ﷺ من التوصُّل في الإمامة التي بها سـلامة الإسـلام والمسـلمين وسـعادتهم إلى يـوم الديـن»[3]، وأنَّ النبيّ ﷺ لم يخرج من الدنيا حتَّى نصَّ عـلى الإمام من بعده، كيف

(١) ينظـر: الارشـاد في معرفـه حجـج الله عـلى العبـاد، محمَّـد بـن محمَّـد بـن النعـمان المفيـد: ١/ ١٩.

(٢) كشف المحجَّة: ٨٥.

(٣) م.ن: ١٢٠.

لا وهو لا يخرج لغزوةٍ قريبةٍ وسفرٍ قاصدٍ إلَّا ونصَّب نائبًا، فكيف يترك الأمَّة كلَّ هذه المدَّة من غير إمام؟ يقول السيِّد: «إنَّ جدَّك محمَّدًا صلوات الله وسلامه عليه وآله، كان ما يخرج في غزوة إلَّا ويجعل في المدينة نائبًا، ومدَّة الغزاة قصيرة في حياته، فكيف يقبل العقل أنَّه ترك الأمَّة مهملة من نائب ينصُّ عليه، والمدَّة طويلة خطيرة كثيرة بعد وفاته»[1].

فضلًا عن أنَّ الوصية واجبة، «فكيف قبلت العقول أنَّ من يعلِّم الناس الوصيَّة لمن يخلفونه، يترك الوصيَّة بهم بالكليَّة، وقد علم أنَّهم يختلفون بعد وفاته ويخالفونه»[2]، وكيف يكون الدين كاملًا، ويقع فيه الخلاف والاختلاف، وغيرها من الأدلَّة على الإمامة نُجملها في ما يأتي[3]:

١. آية إكمال الدين وإتمام النعمة، وواقعة الغدير.

٢. الوصف بالصفات الكاملة التي لا تنطبق إلَّا على الإمام من كونهم اثني عشر إمامًا من قريش، معصومين من الذَّنب.

٣. ورود نصوص مختلفة في كتب المخالِف والموافِق.

٤. وجود المعجزات والكرامات الدالَّة على إمامتهم.

٥. إجماع أتباع أهل البيت على أنَّ الروايات أثبتت الصفة والاسم لجميع الحجج الطاهرة.

٦. سعة علوم أهل البيت، فلا يوجد سؤال إلَّا وأجابوا عنه.

(١) كشف المحجة ص٨٦
(٢) م.ن. ص٨٧.
(٣) م.ن. ص٨٦-٩١.

فالنبيّ صلى الله عليه وآله أوصى لعليّ عليه السلام في الكثير من الموارد[1]، فكيف لا يوصي بشأن الأمَّة ومستقبلها؟ «إنَّ كلَّ منصف عاقل فاضل من أهل الإسلام، بعيدٌ أن يقبل عقله أنَّ محمَّدًا جدّك عليه وآله أفضل الصلاة والسلام يتلوا عليهم قرآنًا يتضمَّن ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا﴾، ثمَّ يدَّعي مدَّعٍ أنَّه عليه السلام مات وترك أمَّته متحيِّرين في الإمامة، وهي من أهمِّ أمور الإسلام والمسلمين، حتَّى ضرب بعضهم رقاب بعض، وكذَّب بعضهم بعضًا، وتفرَّقوا ثلاثًا وسبعين فرقةً، وافتضحوا بين أهل الملل، أين هذا الاختلاف والنقصان من وصف دينه بالكمال بصريح القرآن؟ لولا أنَّهم افتضحوا وخالفوا دليلهم على الأسلاف بالغلط والبهتان»، إلى أن قال: «إنَّ هذه الآية نزلت يوم نصَّ رسول الله صلى الله عليه وآله على أبيك عليّ بن أبي طالب صلوات الله عليه وآله النصَّ العام»[2]. فالإمامة نصٌّ جليٌّ من النبيّ صلى الله عليه وآله على الإمام عليّ عليه السلام.

وقد أكَّد السيِّد على أنَّ الأئمَّة المنصوص عليهم هم اثنا عشر إمامًا من قريش، ولا يوجد ما يطابق هذا إلَّا عند الإماميَّة، مشيرا بذلك إلى قول النبيّ صلى الله عليه وآله: «إنَّ جدَّك محمَّدًا صلوات الله عليه وآله، قال على رؤوس الأشهاد: **لا يزال الإسلام عزيزًا ما وليهم اثني عشر خليفة كلُّهم من قريش**. وهذا العدد ما عرفنا أنَّ أحدًا اعتقده غير الإماميَّة، وهو تصديقٌ لما أنت عليه وسلفك من اعتقاد إمامة الاثني عشر من الصفوة النبويَّة، وقد تضمَّن كتاب الطرائف ذِكر الأحاديث بذلك وأمثاله على وجهٍ لا يشكُّ فيه عقل العارف»[3].

(١) ظ: كشف المحجَّة: ٤٥.
(٢) م.ن: ٨٧.
(٣) م.ن: ١٠١-١٠٢.

فإثبات الرواية وتوثيقها يكون من أولويَّات المنهج البحثيّ لدى السيِّد. وهذا الكلام فيه إثبات لعدد الأئمَّة، وصفة من صفاتها، بل شرط من شروطها أن تكون في قريش لا تخرج عنها، حيث يقول: «... بإجماعهم وتواترهم أنَّ النبيّ صلى الله عليه وآله قال: **الأئمَّة من قريش**. وهذا نصٌّ صريحٌ منه على تعيين الإمام، وأنَّه من قبيلة قريش دون سائر القبائل»[1].

وإنَّ الأئمَّة معصومين من الذنوب، و«من زعم أنَّ الأئمَّة عليهم السلام لا يحتاجون إلى العصمة، هل تقبل عقولكم أنَّ نبيَّنا علم الله تعالى أنَّه يفتح في حياته قريات وحصونًا صغيرة ويُسلم على يديه نفوس يسيرة، فيجعله الله جلَّ جلاله معصومًا، ويريد الوحي إليه ويكلِّمه فيما يحتاج أمَّته إليه، ثمَّ يعلم أنَّ بعد وفاته يحتاج الناس إلى رئيس يفتح أضعاف ما فتحه من البلاد، ويُسلم من الأمم أضعاف من أسلم على يده من العباد، وينتشر حيلهم، ويقع الخلف بينهم، وينقطع الوحي عنهم، ولا يكون الذي يقوم مقامه فيهم معصومًا حتَّى يقوم في الأثقال الزائدة، ويوثَّق منه بالعدل، وترك الأعمال الفاسدة، هذا ما يدَّعيه على الله جلَّ جلاله وعلى جدِّك محمَّد صلى الله عليه وآله إلَّا عقول غافلة أو جاهلة أو معاندة»[2].

وأكَّد ذلك بقوله: «وهل كان كمال صفات ربِّ العالمين، وكمال صفات رسول المفضَّل على الأوَّلين والآخِرين أن يكون نوَّابهما غير كامِلين معصومين، وهما يريدان أن يحفظوا أسرارهما وشريعتهما، ويقوموا بأمور الدنيا والآخرة قيامًا مستمرًّا بغير تهوينٍ ولا توهين»[3].

(١) كشف المحجَّة: ٩٤.
(٢) م.ن: ٨٩.
(٣) م.ن: ١٠٣.

اعتمد السيِّد في عرض آرائه الكلاميَّة في كثير من الموارد، وعلى وجهٍ خاصٍّ في مسألة الإمامة على منهج الحوار والمناظرة مع أشخاص من مذاهب أخرى[1].

وممَّا يتميَّز به المنهج الذي تبعه أنَّه استدلَّ بجملة من مصادر العامَّة والخاصَّة[2]

(١) للاستزادة ينظر: كشف المحجَّة: ١٣١-١٤٠.

(٢) اعتمد السيِّد على مجموعة من مؤلَّفات المذاهب المختلفة، منها: كتاب صحيح البخاريّ، ومسند أحمد، وفرائد السِّمطين، وغيرها، كما ورد في: ٨٨، ٩٤، ١٠١، ١٠٢.

المطلب الخامس

المعـاد

أجمع الإلهيُّون على ضرورة وجود المعاد، فهو محلُّ العدل الإلهيّ، وجزاء المحسن، ومعاقبة المسيء، فالشَّريعة الإسلاميَّة لم تدع جانبًا من جوانب حياة الإنسان إلَّا وتطرَّقت بالبحث إليه، ووضعت له المنهج الواضح، ومن بين ما تطرَّقت إليه الشريعة الإسلاميَّة في موضوع العقيدة الإسلاميَّة مسألة في غاية الأهميَّة، وهي مسألة الإيمان باليوم الآخر، فاليوم الآخر هو اليوم الذي يأتي بعد انتهاء مرحلة الحياة الدُّنيا، وقد سُمِّي باليوم الآخر؛ لتأخُّره عن مرحلة الحياة الدُّنيا القريبة الحاضرة، وقد ورد في القرآن الكريم عدَّة أسماء لليوم الآخر؛ منها: يوم الحساب، ويوم التَّناد، ويوم القيامة، ويوم الخروج، ويوم التَّغابن[1].

ومن هنا صرَّح السيِّد: «إنَّ أهل القبلة قد أيقنوا بالمعاد»[2].

(١) ينظر: الإيمان والكفر في الكتاب والسنَّة، جعفر سبحاني: ١/ ٤٤، العقائد الحقَّة، علّي الصدر: ١/ ٣٣٢.

(٢) كشف المحجَّة، الفصل الرابع والخمسون بعد المئة: ٢٠١٦.

قائمة المصادر

١. إحياء علوم الدين، أبو حامد الغزاليّ، ط١، دار ابن حزم، بيروت، ٢٠٠٥.

٢. الإرشاد في معرفه حجج الله على العباد ، محمَّد بن محمَّد بن النعمان المفيد، المطبعة الحيدريَّة، ١٩٦٢.

٣. الاعتقادات، الشيخ الصدوق، ط٣، مؤسَّسة الإمام الهادي.

٤. الإيمان والكفر في الكتاب والسنَّة، جعفر سبحاني، ج١.

٥. بداية المعرفة، حسن مكِّي العامليّ.

٦. تسهيل السبيل بالحجَّة، للفيض الكاشانيّ.

٧. تصحيح اعتقادات الإماميَّة ، الشيخ المفيد ، تحقيق: حسين دركاهي.

٨. إلجام العوام عن علم الكلام، أبو حامد الغزاليّ.

٩. جامع بيان العلم وفضله، ابن عبد البرِّ، ج٢.

١٠. الحجَّة في بيان المحجَّة، قوام السنَّة أبو محمَّد، إسماعيل بن محمَّد التميميّ الأصفهانيّ (٤٥٧-٥٣٥هـ)، ج١

١١. الذخيرة، الشريف المرتضى، باب الكلام في اللطف.

١٢. ذم الكلام للهروي، ج٤ و٥.

١٣. العقائد الإسلاميَّة، محمَّد حسين الطباطبائيّ.

١٤. العقائد الإسلاميَّة، مركز المصطفى.

١٥. عقائد الإماميَّة، محمَّد رضا المظفَّر.

١٦. العقائد الحقَّة، عليّ الصدر.

١٧. فرائد السِّمطين.

١٨. صحيح البخاريّ.

١٩. كشف المحجَّة، المقدِّمة بقلم المحقِّق محمَّد الحسُّون.

٢٠. كشف المراد في شرح تجريد الاعتقاد، العلَّامة الحِلِّيّ.

٢١. محاسبة النفس للسيِّد ابن طاووس، بقلم جواد القيُّوميّ الأصفهانيّ.

٢٢. مسند أحمد بن حنبل.

٢٣. مفاهيم القرآن، جعفر سبحاني.

٢٤. الميرزا الأصفهاني رائد التفكيك في المعرفة الدينيَّة، مجموعة مؤلِّفين، ترجمة: عبَّاس جواد.

٢٥. نفحات القرآن ، مكارم الشيرازيّ، ج٣.